زلزال سنة 1927

وأثره على مدينة نابلس

بقلم
أ.د. وائل أبو صالح

جامعة النجاح الوطنية

*** زلزال سنة 1927***

في الساعة الثالثة من بعد ظهر الحادي عشر من تموز 1927، ضرب أرض فلسطين وشرق الأردن زلزال متوسط في الشدة وذو أمد قصير، انصب غضبه على مدينة نابلس، فأصاب مبانيها بالدمار الشديد، مما أدى إلى مقتل الأهالي وتشريدهم.

** قوة الزلزال والمساحة التي تأثرت منه**:

جاء في تقرير الأستاذ أيفانز، أستاذ الجيولوجيا في الجامعة العبرية عن الحادث قوله: لقد سجل مقياس روس فوريل درجة بين رقمي 8-7 على وجه العداد، وإذا ما علمنا أن أعلى درجة في هذا المقياس هي (12) أيقنا أن الزلزال كان متوسطاً، وذا وقت قصير، ولكن، لما كان مكان الزلزال الرئيسي هو غور الأردن، مما جعل تأثيره على الضفة الغربية من نهر الأردن كبيراً بسبب وجود خلل ومنافذ بين جبال القدس وتجاه وادي الجفتلك والباذان والفارعة، فوجد فريقه إلى مدينة نابلس الواقعة بين جبلين، أضف إلى هذا نمط البناء السائد في مدينة نابلس، فأحياؤها متراصة، وأبنيتها مؤلفة من طبقتين، أو ثلاث يستند بعضها إلى بعض، مبنية من الحجارة القديمة والطين والكلس، علاوة على هذا وذاك أن أرض مدينة نابلس القديمة والتي وضع عليها اساس البناء، كانت مشبعة بالمياه، فما أن ضرب الزلزال هذه المدينة حتى أخذت ابنيتها غير الصالحة بالتشقق والتداعي والسقوط، فجلجل في أنحاء المدينة صوت الحجارة وهي تتدحرج وتسقط، والأواني النحاسية والفخارية وهي تهوي .. فمدينة نابلس – باجماع المؤرخين- كانت أكثر المدن تأثراً به، وخراباً من أجله، وتليها مدن اللد ثم الرملة.

أمّا الساحة التي عمّها الخراب فكانت نحو سبعين ميلا من الشرق إلى الغرب، (من عمان إلى اللد) وخمسين ميلاً من الشمال إلى الجنوب (من نابلس الى الخليل). ومساحتها هذه الاهليلجية الشكل تبلغ ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف ميل مربع.

وقد شعر بضربة الزلزال شعوراً واضحاً سكان القاهرة غرباً، وسوريا شمالاً وسكان الجزيرة العربية شرقاً، ومما يؤكد هذا ما ذكرته مجلة المقتطف في عدد أغسطس عام 1927، إن الناس في القطر المصري شعروا بهزة أرضية شديدة في الحادي عشر من يوليو عام 1927، فظنوا أن مركزها احدى جزر الأرخبيل ببحر ايجه كما يحدث عادة.

على أن زلزال سنة 1927 لم يكن أول زلزال عصف في أبنية هذه المدينة، فقد سبق أن صربها زلزال في القرن الثامن الهجري ودمرها عن بكرة أبيها، باستثناء جادة السمرة.

مواقف ومشاهد ترتبت على الزلزال:

ما أن شعر أهالي نابلس بالزلزال حتى فزعوا من بيوتهم مذعورين مبهوتين... الكل يريد أن ينجو بنفسه، ولكنه لا يدري أين يذهب، وكأنهم أمام يوم الحساب، وتعالت الصيحات من هنا وهناك، وخارت الأعصاب وعم الخوف والهلع والفزع، بعد أن ارتفعت أعمدة الغبار التي كانت تشاهد من على بعد، وأخذ كبار السن رجالاً ونساءً يطلبون إلى الناس أن يرددوا "يا لطيف يا لطيف" فاختلطت الأصوات، وفرش شبح الموت جناحيه على كل الأزقة المظلمة... ومن غير وعي منهم ترك العمال محاجرهم وعادوا مسرعين

مضطربين ليروا ما حل بأهليهم... يا لها من لحظة شؤم تحمل الأم وسادة طفلها، وتترك طفلها نائماً في سريره، وأخرى ترى جدار بيتها ينهار عليها فيرتكز بجدار آخر لتظل تحت الأنفاق، الموت أقرب اليها من حبل الوريد... لحظات معدودة وانتهت ضربة الزلزال ليهرع الناس إلى بيوتهم وليروا بأم أعينهم الأهوال والمصائب التي لحقت بهم، فهذا بيت سقط سقفه وظلت جدرانه قائمة، وآخر تصدعت جدرانه وأوشكت على الانهيار، وثالث تحول إلى ربوة صغيرة وهكذا... وأخذ الأهالي يسألون عن بعضهم بعضاً، هذا جريح تم نقله إلى المستشفى الوطني، وذاك تحت الأنقاض ينتظر وصول يد الرحمة والإنقاذ إليه قبل وصول يد المنون، وآخر فارق الحياة... وفي كل هذه المعاني والمشاهد يقول ابن نابلس الشاعر إبراهيم طوقان، في قصيدة له بعنوان "كارثة نابلس":

لا تقف سائلاً بنابلس الثكلى	فما عندها مجيب سؤال
أرأيت الطيور تنفر ذعراً	من خفاف عن سرحها وثقال
هكذا نفرت عن الدور أهل	عمروها، الى كهوف الجبال
أرسوم وكن قبل صروحا	كلّ صرح عات على الدهر عال
فالتحفنا السماء بعد ستور	وشفوف مذللة وحجال
وليالي الأعراس يا لهف قلبي	عطّلتها تقلبات الليالي
ربّ واد كأنه النهر الأخضر	يختال في برود الجمال
كان واديك للسرور مآلا	فغدا بالثبور شرّ مآل
ههنا أسرة تهاجر والخمل	بديل الأثاث فوق الرحال
ههنا مبتلى يفقد ذويه	ههنا معدم كثير العيال
ملأ الحزن كلّ قلب وأودت	ريح يأس بنضرة الآمال
دخلاء البلاد، ان فلسطين	لأرض كنوزها من نكال
تبرها صفرة الرّدى فخذوه	عن بنيها، وآذنوا بارتحال

ضحايا الزلزال:

اختلف المؤرخون فيما بينهم حول عدد ضحايا هذا الزلزال، فقد ذهب الأستاذ محمود العابدي في كتابه "من تاريخنا" إلى القول: وبلغ عدد القتلى (217) شخصاً، وهذا الرقم يعادل ثلاثة أضعاف عدد القتلى في شرقي الأردن الذي تعرض لنفس الزلزال حيث بلغ عدد الوفيات هناك (68) قتيلاً فقط، في حين ذهب المؤرخ إحسان النمر في كتابه "تاريخ جبل نابلس والبلقاء" إلى أن عدد ضحايا الزلزال حوالي عشرين شخصاً، وفي رسالة شكر إلى من مجلس بلدي نابلس إلى عدد من الشخصيات الفلسطينية ممن قدموا معونات إلى المنكوبين نقتطف منها: "ثم أننى الآن لا أقدر أن أشرح لحضرتكم بالتفصيل الأضرار المادية والمعنوية التي حصلت لأهالي هذه المدينة، ولكن أبين لحضرتكم أنه لحد الآن الذي قدرنا أن نفهم من الخسارات هو 303 أشخاص قتلوا تحت الردم. ويوجد خمسة وعشرون تحت الردم، وأيضاً 350 مجروح منهم ستون جروحهم خطرة، ومائتان وأربعون جروحهم خفيفة". وفي سؤالي لعدد من المعاصرين للزلزال، تبين أن عدد ضحايا الزلزال حوالي خمسين شخصاً، ما بين طفل رضيع، وشيخ مسن.

في حين بلغ عدد الجرحى حوالي سبعين جريحاً، نقلوا إلى المستشفى الوطني، كما أصيب خمسون بيتا بأضرار بالغة، وكانت جادة "الحبلة" من أكثر أحياء نابلس تضرراً، وعائلة "العكيلك" من أكثر عائلات نابلس خسارة بالمال والأرواح، فقد روى أن معظم أفراد هذه العائلة -رجالا وإناثا- كانوا محتفلين في عرس أحد أقاربهم، وعندما ضرب الزلزال المدينة هدم بيتهم الكائن في جادة الحبلة، وهدمت الدكاكين الكائنة في أسفل البيت.

وبدراسة الأرقام التي تتعلق بعدد الضحايا يرى الباحث أن بعضها بعيد عن الصحة وبخاصة ذاك الكتاب الذي عثر عليه في ملفات بلدية نابلس، فالكتاب -أولا- غير معنون، ولا موقع من قبل أية جهة رسمية، إضافة الى هذا ركاكة لغته على أكثر من صعيد، وأن هناك تعديلاً وزيادة في عدد الضحايا، وآثار هذا التعديل لا تزال واضحة على الكتاب، فقد ذكر الكاتب أن عدد الضحايا "خمسة وعشرون" شخصاً، ثم شطب هذا الرقم ووضع الرقم الثاني.

أما بالنسبة للأستاذ محمود العابدي، فاعتقد أنه اعتمد على بعض سجلات بلدية نابلس، وهذه السجلات مغلوطة، وفيها من المبالغات الشيء الكثير.

أما بالنسبة للأستاذ إحسان النمر، فمع كونه قد عاصر الزلزال، إلا أن الرقم الذي ذكره لا يطابق إحصاءات لجنة الإغاثة، لهذا أميل إلى تأييد رأي المعاصرين للزلزال، وممن عملوا في لجنة الإغاثة، وعدد الضحايا عندهم حوالي خمسين، وهذا عدد غير قليل، إذا ما علمنا أن عدد سكان نابلس في تلك الآونة كان حوالي ثلاثة وعشرين ألفاً.

سير عمليات الإنقاذ والمساعدات:

ما أن هدأت ثورة الزلزال حتى شمّر أهالي نابلس عن سواعدهم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ومساعدة من يحتاج إلى مساعدة، فذهبوا إلى البيوت المتضررة يبحثون عن الضحايا والجرحى ونقلهم إلى المستشفى، إذ كانت المرأة هنا تحتشم لدينها وشرفها وتعمل إلى جانب الرجل، فالبيت بيتها، والمتضرر قريبها وابن بلدها، وكان خروجها لمساعدة الجرحى مفاجئاً للجميع كما يقول عفيف العكر، ومفخرة لنساء فلسطين في تلك الحقبة من الوقت، إذ كانت المرأة في نابلس لا تخرج من بيتها إلا لزيارة أهلها، وظل أطباء المستشفى الوطني يستقبلون الجرحى ليل نهار، وقد انضم إليهم الأطباء من أصحاب العيادات الخاصة، ونخص بالذكر منهم المرحوم الدكتور حسن بيك الخالدي، أو "أبو الفقراء" - كما يحلو للبعض أن يطلق عليه- وبعض الطلبة الأطباء من أبناء البلد ممن حضروا لقضاء العطلة الصيفية عند أهاليهم.

واستمرت عملية الإنقاذ هذه لمدة يومين اثنين، تجلت خلالهما أسمى آيات التضحية والوفاء، بحيث ارتسمت في أذهان المعاصرين صورة جميلة ينقلها السلف للخلف، فعندما يهدد الموت الجميع تصبح التضحية ضرباً من العبادة.

هذا على المستوى الشخصي، أما على الصعيد الرسمي، فقد طلب الحاكم العسكري البريطاني - في المساء- إلى أهالي البلدة أن يناموا خارج بيوتهم تحسباً من وقوع زلزال آخر، وطلب من إدارة المستشفى أن تقوم بتوزيع الخيام على الأهالي، فنام قسم منهم في البستان الكائن مكان الدوار اليوم، وتجمع أهالي الحي الشرقي في الخلة الشرقية للبلد قرب "رجال العامود" أما أهالي الحي الغربي من نابلس، فقد تجمعوا في منطقة "الخلة" الغربية قرب المطحنة.

ولم تكن بلدية نابلس في تلك الحقبة من الوقت بمعزل عما يجري، فمنذ البداية عملت على توزيع المواد الغذائية على المنكوبين، وذلك حسب قوائم خاصة أعدت لهذا الغرض، غير أن هذه المساعدات كانت حلاً مرحلياً وجزئياً، لأن أبناء المدينة المتضررين استمروا بدون مأوى لهم.

وكان هذا الوضع السيء دافعاً لبلدية نابلس أن تعمل جاهدة في سبيل توفير مساكن لأبناء البلد المتضررين، فعملت أولاً على تشكيل لجنة خاصة لإغاثة المنكوبين أطلق عليها اسم "لجنة إغاثة المنكوبين" وكان برنامج عمل اللجنة حسب الأولويات التالية:

الاستمرار في تسليم المواد الغذائية وإعادة توزيعها على المنكوبين بعد أن تراكمت هذه المواد في المخازن نظراً للمساعدات المتواصلة التي تسلمتها المدينة.

فتح حسابات مالية لصالح المنكوبين في البنك العثماني، لتكون رصيداً لتغطية مصاريف المنكوبين التي تمثلت في مساعدات مالية ومواد غذائية.

العمل على تأمين مساكن لاصحاب البيوت المتهدمة، فبعد أن تسلمت اللجنة المبالغ الكافية، أخذت بشراء واستملاك قطع الأراضي اللازمة لبناء البيوت للمتضررين في خلة العامود بنابلس.

توزيع الأقساط على أصحاب البيوت المتضررين من الزلزال وذلك حسب المراحل المنجزة من العمل.

بهذه الخطوات تمكنت البلدية من مساعدة المنكوبين مساعدة فعالة، وان كان هذا العمل قد استمر طويلاً – حيث امتد من العام 1932 حتى العام 1948- إلا أنه كان حلاً جذرياً لأصحاب البيوت المتضررة، وكان من أعضاء لجنة الإغاثة عفيف العكر وشريف صبوح وسليمان طوقان- رئيس البلدية آنذاك- رحمهم الله جميعاً، وقد اتخذت لجنة الإغاثة هذه من مدرسة الفاطمية مركزاً لها، حيث كانت المساعدات تصل أولاً من القرى المجاورة وبقية المدن الفلسطينية، ثم من بعض الأقطار العربية، ومن المدرسة توزع على المحتاجين.

وبالرجوع إلى ملفات بلدية نابلس في تلك الآونة، نلاحظ أن عدداً من رؤساء بلديات المدن الفلسطينية والعربية قد شكّلوا لجاناً لجمع التبرعات من الأهالي وارسالها الى منكوبي نابلس، فقد وصل إلى رئيس بلدية نابلس سليمان طوقان بواساطة رئيس بلدية يافا مبلغ مئتين وستين جنيهاً، وكذلك بالنسبة لرئيس بلدية الناصرة، ومن أهالي عرعرة، ومن خارج فلسطين فقد أرسل سعد زغلول مبلغ مئة جنيه، ومتصرف لواء دمشق مبلغ مئة وستين ليرة انجليزية، ومن رئيس بلدية حماة خمسة وسبعين جنيهاً... علاوة هذا برقيات التعزية، فهناك برقيات من رئيس بلدية غزة، وحيفا وصفد ورئيس تحرير مجلة الثورة المصرية.

وما دمنا بذكر المساعدات لا بد من الإشارة أن بعض الموسرين من أبناء فلسطين حجبوا مساعداتهم عن المنكوبين، متذرعين أن زلزالاً آخر سيحدث في غضون ستة أشهر، وهناك فريق آخر من الموسرين حصروا مساعداتهم في قلة تخصهم، مما أدى إلى الهاب مشاعر الأدباء والكتاب آنذاك، وعلى رأسهم الأستاذ خليل السكاكيني، فقال في مقالة له بعنوان : "صدى الزلزال" ماذا فعلت الزلزلة؟ أهدمت بيوت الفقراء،... ولكن ألا يهدم سادتنا الأغنياء كل يوم بيوت الناس ليقيموا على أجسام الفقراء وجبلت بدمائهم التراب؟.... من من أغنيائكم باع سيارته الفخمة أو وقف جانباً من دخله ولو قليلاً في سبيل هذه النكبة... أين المعني الذي قصدته "لجنة الإغاثة" فلم يشكُ ولم يعتذر، بل مد يده على خزانته الحديدية فتناول مبلغاً من فضلة حاله.....؟؟ لا، لم يعمل أغنياؤكم من هذا شيئاً".

آثار الزلزال:

فعلاوة على الدماء والخراب والقتل والتشريد الذي لحق بأهالي نابلس من جرائه، فقد اتسعت مدينة نابلس بعد الزلزال مباشرة، فأيام الزلزال كانت محصورة في بوابتين شرقية وغربية، وبعد الزلزال تجاوز الناس البوابتين فعمروا الجبلين "عيبال وجرزيم" فالطائفة السامرية على سبيل المثال كانت تقطن المنطقة الواقعة شرقي المسجد الحنبلي، وعقب الزلزال مباشرة فطنوا لفترة مؤقتة " 6 أشهر" منطقة رأس العين، ثم استقروا في مكانهم المعروف اليوم غربي المقبرة الغربية، وكذلك بالنسبة للمنكوبين من الزلزال فقد استقروا في الخلة الشرقية قرب "رجال العامود" – التي عرفت باسمهم فيما بعد- بعد أن وهبتهم البلدية الأرض، وغير هؤلاء الكثير .

علاوة على هذا ان أصبح حادث الزلزال تاريخاً يؤرخ به، فالسيدان حكمت المصري والحاج معزوز المصري كان زفافهما يوم الزلزال، ووالدتي ولدت قبل الزلزال بعامين وهكذا.

وبعد، ففي الماضي عبرة وعظة وأمل، فمن بقاياه المشرقة نزخرف شامخ بناء المستقبل، ومن ظلام نهاره نضيء عند الاعتبار طرقات يومنا، لهذا كثيراً ما تشوه أو تزور صفحته، ليكتب على هذا الأمة أو تلك أنها مبتورة، فذكره واجب حتى لو عصفت به زلازل الفتن، وإحياؤه فرض حتى لو غطته حمم براكين الحقد، فحاضر مشرق بلا ماضٍ يسنده يعتبر هذا الحاضر سرقة، وماض حافل بالمعجزات وحاضر مشحون بالمآسي يعتبر هذا الحاضر وصمة عار في جبين أصحابه.